وقام ادعاء بأن إيڤان عندما هرب الى نوفغورود كان يرزح تحت وطأة خوف جبان . ولكن مع أنه كان أكرم له وأكثر شجاعة أن يبقى في موسكو لمجابهة التتر الغزاة فإن المرء لا يكاد يكشف في سلوكه شيئاً يدل على الجبن . كان سعيداً في زواجه الجديد . ومع أنه كان يدعي دائماً بأنه في خطر فقد عامل المبعوثين السويديين والليتوانيين بحزم يشعرنا بأنه كان واثقاً من نفسه ومن مكانته . وعلى الرغم من أنه كان بحاجة الى كامل جيشه للدفاع عن موسكو في وجه التتر فإن هدفه في نوفغورود كان فرض الصلح على السويد لا أن يطلبه . ولم يكن أقل من ذلك ثقة تجاه بولونيا وليتوانيا .

وفي النصف الثاني من عام ١٥٧٢ جرت أحداث مثيرة . كانت تلك فترة هامة من عهد إيڤان الرهيب . فقد مات سيجسموند أوغست في الثامن عشر من تموز يوليه ، وفي الفاتح من آب أنزل ميشيل فوروتنسكي الهزيمة بجيش الخان الضخم الذي كان قد تقدم الى بعد مرحلتين من موسكو . وعاد إيڤان على الأثر الى العاصمة ليشكر جيشه ويحل الأوبريتشينا .

كان سيجسموند قد مات فقيراً بعد أن أفلسته محظياته والعدد الكثير من الفضوليين الذين كانوا يعيشون في بلاطه حتى أنه لم يوجد لديه من المال ما يكفي لدفنه على ما يليق . ويقال إنه على فراش موته عيّن إيڤان ليكون خليفة له . ولكن ذلك أمر غير معقول . ما حدث أن عدداً من النبلاء البولونيين والليتوانيين كانوا أنصاراً لإقامة مملكة مزدوجة تحت صولجان فيدور الابن الأصغر لإيڤان . وقد صرح القيصر : « إذا كنتم موافقين على فيدور فلم لا أكون أنا ؟ » . إلا أن بعض البولونيين والليتوانيين كانوا يخافون بدون شك أن يكون ذلك مبالغاً فيه . وقد كتب إيڤان رسالة نفاق يعبر فيها عن أمله لموت أخيه سيجسموند وأنه يرى في نفسه ملكاً على بولونيا وغراندوقاً على ليتوانيا .